تفوُّق الادب الاغريقي ومزاياهُ

البساطة — الايجاز — الصدق — الجمال

اذا كانت الجهود الفكرية مواليد العقل فالادب ابنهُ البكر . لان كل تمدُّن في كل امة، في كل عصر، في كل حال ، يبدأ بالادب ، وبهِ يرقى ويتفوَّق ، وبهِ تتطوَّر الممالك والشعوب. فهو الصق ظاهرات النفس بها وادلُّها عليها حتى قالوا ان الادب هو الامة . كنت احدّث بعضهم من عهد قريب فاشرت الى ارتقاء الامم السكسونية ، فانكر عليَّ ذلك قائلاً : — « ماذا تعني بالارتقاء ؟ . اتعني القوَّة والثروة والبطش ؟ ان كان ذلك كذلك فهلاكو وتيمور والاسكندر واضرابهم وامهم وعصورهم هي مُثُل الارتقاء العليا »

قلت بل اعني « الحياة الروحية » فاجاب لبَّيك « ان الامم اللاتينية وتمدنها لهي محل الحياة الروحية » ، قلت وبمَ . قال « بأدبها » . قلت لاريبة عندي في ان الامم اللاتينية ممتازة بالادب وان كنت لا انكر الثروة الروحية العظيمة التي ينطوي عليها الادب الانكليزي من شكسبير الى برناردشو . قال حسبك فلقد انتهى البحث فان « الامة بآدابها »

لا اقدر ان انكر ان حجَّتهُ اثَّرت في نفسي ، واني وان لم اسلِّم بها كل التسليم لا انكرها كل الانكار . واني ارى ان الادب ادلُّ على الحياة الروحية من صنع القوَّاصات وانشاء الشركات التجارية. فهل لنا مثَل اعلى أدبيٌّ في امم التاريخ ؟ ومن هي تلك الامة ؟ وما ممزات أدبها ؟

قال الكاتب الانجليزي الذي عنهُ اخذت الجانب الاكبر من مواد هذه المقالة : —

« امم كثيرة عرفت فن الكتابة ، وتركت فيهِ ابدع الآثار ، ولكن لا امة ، الاَّ الاغريقية ، بدأت فن الادب بالمعنى الخاص ، الذي بدأت هي بهِ ، ولا امة بلغت شأو الاغريقيين ، وابرزت ما ابرزوا من العدم . فكانوا هم الخالقين بمعنى الكلمة ، دون سائر الناس ، يدلك على ذلك هوميرس والروايات الاغريقية

« يبدأ الادب طفلاً حشوه الركاكة ، ثم يتدرَّج في معارج النمو والارتقاء ، الى ان يبلغ رشاده . اما الاغريقيون فقد بدأوا الفن راشداً . لا احد يعادلهم في تقديس مبادىء الآداب، واشتمالها على غزير المادة. لاريب ان بعض النوابغ بلغوا مستوى الاغريقيين الادبي، ولكن لا امة بلغت بمجموعها ذلك المبلغ »

فهل لذلك الادب — الاغريقي — من مزايا ؟ . وما هي ان كانت ؟ واي درس عملي نجده ، ويجده العالم ، امام عيوننا ؟

١ — البساطة والاستيلاء

اذا رجع القارئ بفكره من ملتن الى هوميروس ، ومن شكسبير الى صفوقليس ، ومن مُحْدثي المؤلفين الى افلاطون ، فانهُ يجد نقطة واحدة كبرى ، فارقة بين ادب الاقدمين وادب المحدثين . وهي ان كتابات اولئك « ابسط وأوجز » . اي ان كتابات الاغريقيين القدماء ، تاريخيةً وفلسفيةً ، هي اكثر ايجازاً من مثلها من الكتابة العصرية . ودونك الشواهد على ذلك : فان جمهورية افلاطون وهي تشتمل على قدر من الفلسفة اكثر من كل مؤلف آخر ، لا تزيد على ثلاثمائة صفحة . وكتاب ارسطو في « الشعر » وقد ظلَّ منهل الكتّاب اجيالاً طوالاً ، لا يشغل اكثر من مائة صفحة

فالبساطة والايجاز اول مزايا الادب الاغريقي . وهذه المزية جلية في تدرُّج ادبهم . فان اسخيلس يقف في اسفل سلّم الرواية ، ومعهُ غورجياس وتوسيديدس خالقا النثر ، وفي كتابة هؤلاء ضعف المبتكر . ولكنا نراهم يبدون في الشعر والنثر ما ابدت ارقى الامم . وكان تقدمهم فيها حثيثاً ، حتى انهم في حياة اسخيلس وصفوقليس بلغوا اوج الابداع في فنون الرواية والأدب . ففي قرن واحد ارتقى النثر الاغريقي من توسيديدس الى افلاطون الذي قال فيهِ ولْ دورانت ان بعض كتبهِ « اعظم قطعة بلغها النثر في كل العصور »

***

قال كهان المصريين القدماء لصولون ، حكيم الاغريقيين ، يوم زار بلدهم . — « ايها الاغريقيون انتم ابداً اطفال » ، ولقد صدق اولئك الكهان اكثر مما ارادوا ، لأن شعور الاغريقيين لا يفتر ولا ينبو ، بل هو ابداً في صبوته . فهم اطفال ابداً ، وقد جمعوا في انفسهم وكتاباتهم نقاوة الأطفال وبساطتهم ، الى عقول الرجال

واليك مثلاً من ادبهم نقلا : —

« قال هكتور المجيد ذلك ، ومدَّ ذراعهُ الى ولده . ولكن الطفل نفر الى حضن مرضعهِ الشعراء ، مشمئزًّا من رؤية والده العزيز ، اذ روَّعتهُ خوذة النحاس على رأسهِ والطرة المتحدرة منها ، فقبله الوالد والوالدة ، وللحال نزع هكتور الخوذة عن رأسهِ ، وألقاها على الأرض وهي تسطع كالذهب . ثم قبل طفلهُ المحبوب ، وجعل يرقصهُ بين يديهِ ، سائلاً زفس ان يباركهُ قائلاً « ايها العظيم زفس ، ويا جميع الآلهة ، باركوا هذا الطفل ، وليكن كأبيهِ شهرة بين ، الطرواديين »

هذا مثل البساطة في ادب الاغريق ؛ ومن السخافة ان يظنّ ان للمحدثين بساطة هوميرس او يركليس

ويمتاز قدماء الاغريقيين في عدم التمييز بين الجنسين ، وفي انهم لم يشجعوا قط قراءهم على كشف الفرق بينهما . واقترنت بساطة كتابهم بفن ادبيّ سامٍ ، وينذر ان يجتمع هذان الامران في غير ادب الاغريق

ان الشعر الانكليزي ، مثلاً ، غني ، فيّاض في التعبير عن العواطف فهو يحكي قولنا

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريق

واما الشعر الاغريقي فعلى الضد من ذلك ، ويدعه الترصّن واخفاء العواطف ، تاركاً لشعور القارىء فسيح المجال . تدلك امثالهم على ايثارهم الايجاز ، فمنها قولهم : النصف خير الكل . ومنها : البذر يد واحدة لا بكل الهميان

وقد طبّقوا تأليفهم على هذا المبدأ ، كما في كتابات توسيديدس ، في وصف حصار سيراقوسة ، وكما في خاتمة الفيدو لأفلاطون ، وفي كتاب الجمهورية ايضاً ، وكما في وصف مقتل هكتور ، واجتماع بريام باخلّس . لا نكير في ان للاغريقيين عواطف فيّاضة ، تميل الى التدفق والانسكاب ؛ لكنهم كانوا يكظمون عواطفهم ويحكّمون فيها عقولهم تحكماً ، وقد بسط افلاطون الكلام بهذا الشأن في قسم كبير من جمهوريته . وأبان لنا ان شكم العاطفة ، عندهم ، سبيل الكمال ، فكان كتّابهم يقتصرون على تدوين الحقائق متجاوزين عن التعليق والتطويل ، حسبك شاهداً على ذلك ختام « الفيدو » حيث اورد افلاطون الكلام بغاية ما يمكن من الايجاز ، وهو يصف استاذه سقراط العظيم ، فاقتصر على هذه العبارة تعليقاً على اهمّ حادث في التاريخ الاغريقي قال « على هذه الصورة يا انجراث ، كانت منية استاذنا — افضل رجل عرفته وأعقل وأعدل »

٢ — الصدق

والصدق اشهر مزايا الأدب الاغريقي . وليس ابعد عنه من القول « ان اعذب الشعر اكذبهُ » . فشعارهم الحق هو هذا « ان اعذب الشعر اصدقهُ » . فلم يكن الشعراء الاغريقيون يرمون الى خلق عالم جديد من مجاهل الخيال ، كلاّ ثم كلاّ ، بل ارادوا ان يروا العالم كما هو ، وان يُروا الناس ما رأوا . كذلك توخوا الصدق في الترجمة عما يشعرون بهم فما كانوا يتكلفون وصف شعور لا يتدفق منهم تدفقاً . وبهذا الاعتبار وهبوا لأوربا ادبهم وفلسفتهم وعلومهم . ولقد كان صدق الاغريقيين طبيعيًّا وعفواً ، كما كان منبعاً . وتتجلى في كتابهم مزية الكاتب الذي يرى ما في الميدان ، وينسى نفسه . على انهُ لا

يهوتا ان في تلك الرؤية ، وفي ذلك الوصف ، كهربائية شديدة الفعل

وان وصفهم يغادرنا احراراً من يأس الحزين وذعره يدلك على ذلك وصف هوميروس طلب بريام جثة ولده من قاتله قال : —

« فدخل بريام دون ان يشعروا به ، ودنا من اخيل ، وامسك بركابيه ، وقبّل يديه . فدهش الحاضرون ، ودهش اخيل ، وتبادلوا النظرات . ثم طفق بريام يتوسل اليه قائلا « ياخيل البار ، اذكر ان لك اباً شيخاً نظيري ، مثقل الهرم ، وقد نأى عنهُ الاقوام ، ولا احد يخشى منهُ شرًّا . وان والداً كهذا يسرُّهُ الافتكار بان له ولداً حيًّا وهو يتوقع يوماً بعد يوم ان يعود الى طروادة فيراه . ولكنني التاعس كل التعس ، لاني وقد ولدت افضل المواليد في طروادة ، لم ينج منهم احد . والوحيد الذي بقي لي ، وهو الذي كان دعامة طروادة وسندها شعبها ، هذا قتلتهُ انت وهو يذود عن حياضها — هكتور — فبحق الآلهة ياخيل ارحمني ، واذكر والدك الشيخ ، واني اكثر منهُ شقاء ، وقد طاوعت مالم يطاوعه والد من المائتين . وذلك في اني ارفع تضرعي الى قاتل وحيدي »

هنا اسىً وبلاء عظيمان ، على انهُ ليس هنالك ادنى محاولة لاخفائهما او تخفيفهما فالصدق في الوصف والبساطة في الايراد ينفذان بالكلام والمعاني الى مخادع النفس . ولكن صدقَ الاغريقيين في ادبهم لا ينحصر بالالفاظ بل يتجاوزها الى الفعال . لانهم قادرون ان يستقلوا في الموضوع الذي يعالجونهُ . قال ثوسيديدس يصف سقوط امفيوليس يد براسيداس : — فلما بلغ ثوسيديدس ما كان من براسيداس اقلع مسرعاً الى امفيوليس ، للدفاع عنها اذا امكن قبل ان تسقط ، والاَّ فيحتل اسكلتها « ايون » . واذ خاف براسيداس من وصول اسطول اثينا الى ثاسوس ، وسمع أن ثوسيديدس قادم ، بذل ما في وسعه لامتلاك المدينة قبل وصوله . فعرض عليها شروطاً معتدلة ، فقبلت شروطهُ وسلّمت المدينة . وفي المساء وصل ثوسيديدس بوارجه الى ايون . على ان براسيداس كان قد سبق فاحتل امفيوليس . وفي الليلة التالية احتل ايون »

فمن الذي يتصوَّر ان ثوسيديدس ، القائد الاثيني ، هو الكاتب ؟ وقد كانت عاقبة ذلك الحادث نفيهُ الابدي عن وطنه . وقد روى ذلك بقلمه كانهُ عن غيره يتكلم لا عن نفسه ، وقد اورد ما اورد دون تعليق او ابداء رأي او تفجُّع . امر كهذا لا نظير له بين القواد المصريين . فقد اقتصر على وصف سفره في نهر سترومًا حتى وصل ورأى امفيوليس مقفلة الابواب في وجهه ، ولم يذكر ان الامر كارثة ، مع اننا نعلم انهُ كارثة . وعلى هذا القياس روى بلوس كارثة سيراقوسة . لا نعرف مؤرخاً من مؤرخي الحرب الكبرى سنة

(١٩١٤ — ١٩١٨) فعل فعل اولئك الاغريقيين لا في جانب الالمان ولا في جانب الحلفاء.

ان هوميرس ، وهو يوناني صادق الوطنية ، يكتب واصفاً حروب عشر سنوات بين مواطنيه وبين الطرواديين ، مع ذلك فكتابته تحمل قارئها على الانحياز الى هكتور الطروادي اكثر من حمله على الوقوف بجانب اخلص الاغريقي . اما هوميرس فكان محايداً ، لا مع هذا ولا مع ذاك . فكان قلمهُ قلم ملاك يكتب وهو في قبة الفلك ، لا قلم كاتب لمرضي تحت ظل القسطل

تستفزّ الشاعر الاغريقي الحقائق لا الاصوات ، ولا الشعور الملابس الحقائق . ولذلك ليس من السهل استبعاده للكلمات . فيصح اتخاذه مثلاً للشاعر . بل المثل الاعلى للشاعر في كل العصور . فالجانب الاكبر من شعر الاغريقيين هو شعور بالاشياء لا بالالفاظ

ومن الصدق الصراحة التامة . والصراحة هي الدرع المنيع الذي يقي غمزات الانانية التي تقتنص الشعراء بسهولة . والانانية خطأ الاساليب ، كما انها خطيئة الادب . وهي صرف الرجل نظره عن العظائم الى الصغائر ، والانسحاب من العالم الواسع الى المحيط الضيق النطاق — الى الذات — فلقد كان شعراء الاغريقيين احراراً من الانرة اذ كانت الصراحة تصرف نظرهم الى العالم الخارجي . والانرة هي عيب الادب الانجليزي الخاص (ان قائل هذه العبارة انجليزي) فان هاردي ودكنز كانا معرضين للنظر في جانب واحد ، ومثلهما كان تولستوي . اما الاغريقيون فكانوا اشمل نظراً ، و أسلم حكماً . فلا نرى في اياذة هوميرس شخصية كاتبها بل شخصية هكتور ، محط آمال طروادة ، وامرأتهُ ، وابنه ، يتوقعون نجاة الوطن . ونرى شخصية اخلص الذي فقد صوت صديقه ، دون تعليق او تحيز . بل وصف الامور كما هي . اما الذين يتوقعون من دكنز وهاردي وصف الكون فهناك جوابان

الاول : ان كونهما غير الكون الذي رآه شكسبير او مريدث

الثاني : ان تاريخ الادب الانجليزي والفرنسي من ١٥٠ سنة هو رجعي . وكل فترة من فتراته هي ضد سابقتها . فالرومية ضد الفلسفية ، والفلسفية ضد الحسية ، وهكذا

اما في تاريخ الادب الاغريقي فنرى غير ذلك . فقد تلا عصر المآسي عصر الكوميدي وتلا هذا عصر الشعر الاسكندري . تلا هوميرس توسيديدس ، وتلا توسيديدس افلاطون وزملاؤه . ولم يكن احد من هؤلاء ضد سلفه . اجل ان في بوريدس نقداً لهوميرس وذلك في تعليق بوريدس على صفوقليس . ولكن هوميرس شخص لا فن . ليس كالماء بين فكتور هوغو وبين فولتير . او بين هذا وبين فلوبير . فلا رجعية في ادب الاغريق ، لان سيرهم كان حقيقيًا لا وهميًا

٣ — الجمال

وهنا محط الرحال . الجمال مزية مزايا الادب الاغريقي . ميثولوجيا جميلة ، شعر جميل نثر جميل ، وصف جميل . فجمال الادب الاغريقي ليس جمال الكلمات والاستعارة بل جمال الفن الراقي فكأن الطبيعة ، هي التي تتكلم لا الانسان. وقد اثبت مكانة الادب الاغريقي اثنان من اشهر شعراء الدنيا وهما جوته وكيتس . قال جوته : « في حضرة التحف الفنية يشعر العقل انه أكمل نظام روحي. فلا نشيد هوميروس الى هذا اليوم قوة تحررنا نوعاً من الجهل السريع الذي تمليه علينا اسطورة الاحيال » . بهذه العبارات ضرب جوته على نقطة البساطة الطبيعية في الادب الاغريقي . وذلك على الضد من الادب الاجنبي الذي اشتهرت به الاجيال الوسطى

اما كيتس فقد كتب انشودة القمر اليوناني فوصف فيها قدرة جماله على التحرير ، قال : « انت ايها الشكل الصامت ، تحررنا من قيود الفكر كما تفعل الابدية . ومتى افنى هذا الجيل العصر تبقى — انت — في وسطشقي آخر غير وسطنا صديقاً للانسان الذي تخاطبه بقولك « الجمال حقيقة — والحقيقة جمال » . هذا كل ما تعرفه على الارض ، وكل ما يلزمك ان تعرفه »

***

البساطة الاغريقية تنفذ بنا الى كنه الاشياء

الصدق الاغريقي يتحدى العالم ، لبذ الموسيقى العصرية الفارغة وعنه اقتبس هذه المزية كبار شعراء الانجليز

هذه هي فتوى المحايدين الذين يوازنون بين هوميروس والمنشدين والمأساتيين وافلاطون وتيوكريبوس والكتبين في الجانب الواحد ، وبين ارباب الادب العصري في الجانب الآخر . فقد كان قدماء الاغريقيين اكثر منا شعوراً بالجمال ، كما هو شأن الشعوب يتفوق كل منها على اخيه بشيء ، هذا باللون وذاك بالصوت وهكذا

لقد وجدت اغريقيا العالم في القرن الثامن عشر ، كما في عهد النهضة ، مكبلاً بالاغلال والقيود ، فقطعت السلاسل وكسرت القيود ، وحطمت الابواب ، بل دكت اسوار الباستيل الادبي دكاً . ومع اختلاف القيود في العصرين اختلافاً بيناً ، في عصر النهضة وفي القرن الثامن عشر ، مع ذلك فالحرية في الموقفين كانت ناشئة عن رؤية الجمال الاغريقي . وفي عصرنا قيود تقال ذكرها جويته ، وتلك القيود تنشر القبح لا الجمال . وعلاج هذا الداء الوبيل اليوم هو علاجه في عصر سلف — رؤية الجمال — فالجمال خالق الحب ، والحب خالق الادب الصحيح ، والادب الصحيح هو لباب حياة الامة في كل عصر وفي كل مصر

القاهرة هنا نهاية

الدكتور روبرت مِلِكَنْ

Dr. R. A. MILLIKAN

. العالم الطبيعي الاميركي نائل جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٣ واكبر الباحثين « في الاشعة الكونية » . وقد انتخب رئيساً لمجمع تقدم العلوم الاميركي خلفاً للاستاذ الدكتور هنري فيرفيلد أوزبورن في ديسمبر الماضي